□ فيما يتعلق بـ«عائد الى حيفا» التي لن نلجأ الى دراستها وتحليلها، اكتفاءً بما له علاقة بالسؤال الأول؛ فيلاحظ ان غسان نشرها عام ١٩٦٩، اي في العام نفسه الذي صدرت فيه رواية «أم سعد»، التي قدم فيها غسان النمط الاخير من ابطاله. فما هي العلاقة التي نراها بين الروايتين؟

ورغم اعتماد رواية «عائد الى حيفا» على الاحداث، الا انها تعطي مكان الصدارة لانشغالات الكاتب الفكرية، التي ينطق بها الشخصيات، لذلك غلب على الرواية التناول الفكري غير المخدوم فنياً، من خلال تطور الاحداث ورسم الشخصيات، اذ ان الاطار الفكري هو الذي يلح على الكاتب، فجاءت الشخصيات فيها ــ في اغلب الاحيان ــ مجرد حاملة بمقولات فكرية جاهزة لدى الكاتب. ولذلك فإن وضع الشخصيات ــ كما نراه ــ يمثل وسيط، بين «ما تبقى لكم» و«ام سعد». إذ جاءت لتمهد الارضية الفكرية التي سينطلق منها سعد ورفاقه في «ام سعد»، وهم يطورون الفعل ــ البداية الذي قام به «حامد» في «ما تبقى لكم». وهذه الارضية الفكرية، من مميزات المرحلة التاريخية التي اصبحت تتميز بوضوح فكري مدروس، جعل بندقية «سعد» ورفاقه، تختلف عن «بنادق» الذين سبقوهم، فهي بندقية مسيسة، تدرك طبيعة الخصم والاسلوب الذي يردعه. ان هذه الارضية الفكرية التي تتمتع بوضوح كاف، هي التي تعطي لـ«سعد» ورفاقه الافق الذي يفجر كل الطاقات الكامنة في نفوسهم، حيث اصبحوا تعبيراً عن شعب بكامله. هذه الارضية يعبر عنها «سعيد. س» بعد ان عجز عن اقناع «دوف» الضابط الاسرائيلي (ابنه خلدون سابقاً) بالظروف التي اجبرتهم على الهروب من الوطن عام ١٩٤٨، وتبرير سنوات السكون التي امتدت طويلاً. عندما افحمه «دوف» بمقولة: «ان الانسان في نهاية الامر قضية» مبرراً من خلالها سبب بقائه في صفوف الجيش الاسرائيلي، رغم معرفته بانه من اليهود عربيين، ويدرك سعيد. س «ان الانسان في نهاية الامر قضية» فعلاً، ولذلك فإن مايميهما «تحتاج تسويته الى حرب». وانطلاقاً من هذا يخبره «دوف» ــ خلدون سابقاً ــ بان المعركة القادمة ربما تكون بينه وبين شقيقه «خالد» الذي التحق بالفدائيين، رغم انه يدرك ان «خالداً» لم يلتحق بالفدائيين بعد، بسبب منعه له... وفي طريق عودته، يتمنى ان يكون قد التحق بالفدائيين في غيابهما، لانه شرفهما الباقي، الذي باستطاعته ان يمسح عارهما الكامن في «دوف» وما يمثل. فالرواية كتبت اصلاً للتعبير عن قناعات فكرية، لذلك يلاحظ ان شخصياتها «تعبر عن افكار وقناعات اكثر منها شخصيات اخذت مداها في الكمون لكي تخرج الينا موجودات حية لها وزنها وقيمتها في الرواية وفي عالمنا»(٤٥). وقيمة موقعها الوسيط بين «ما تبقى لكم» و«ام سعد» انما يكمن في انها تؤكد لحامد الذي بدأ الخطوة الاولى من الفعل، بان هذا لايكفي، فإن الواقع التاريخي ــ من موقع فكري ــ يثبت ان تسوية الامور مع العدو تحتاج الى حرب، هذه الحرب، بعد التسلح بهذه القناعة الفكرية، يشعلها «سعد» ورفاقه في «ام سعد» كما اشتعلت في الواقع فعلاً.

□ أما فيما يخص الروايات الثلاث التي استشهد غسان، قبل ان ينهيها، فإن محاولة دراستها بشكل عام، او وضعها في مكانها المناسب، من السياق الخاص بدراسة «البطل»، تواجه بصعوبة فنية. فهي حلقات لم تكتمل دوائرها، مما يصعب معه تخمين